تعليم اللغة العربيّة: مشكلات وحلول

نصر الدين إبراهيم أحمد حسين

كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، كوالا لمبور، ماليزيا

nasr@iium.edu.my

الملخص: يتناول البحث بعض المشكلات التي تواجه اللغة العربية في العصر الحديث، حيث إن اللغة العربية تواجه قضايا وتحديات متعددة أثيرت حولها، وهذا لا يمنع القول بأهميتها، ومكانتها العالمية. فاللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، وقد نطق بها – قديماً– أصحاب لسان وبيان وبلاغة، وكانت عزيزة عليهم، يفاخرون بها. ولكن في عصرنا هذا أصبحت تعاني من مشكلات مختلفة في تعليمها وتعلمها، وهذه المشكلات وقفت سدّاً منيعاً في طرق تعليمها، واستيعابها على الوجه الصحيح، ولذلك حرصنا على كشف هذه المشكلات، ومحاولة إيجاد الحلول لها. وهذه المشكلات تكمن في: القنوات الفضائية، والشبكة العنكبوتيّة، والتلفاز "الإذاعة المرئيّة"، والصحافة، والبعد التربوي، ومربيات الأطفال، والاغتراب وظاهرة التجنّس، وثنائية اللغة، وضعف المناهج، والتأهيل التربوي، والازدواجية بين العامية والفصحى. وسوف يتخذ بحثنا هذا المنهج الاستقرائي، والوصفي، والتحليلي لتحقيق الأهداف التي سعت الدراسة إليها.

الكلمات المفتاحية: التعليم، اللغة العربيّة، المشكلات، الحلول.

المقدمة

يتناول هذه البحث مشكلات تعليم اللغة العربيّة، ويبرز بعض المشكلات المهمة في تعليم اللغة العربيّة، ويحاول إيجاد الحلول لها. إن التحديات التي تواجه اللغة العربية متعددة، والقضايا التي أُثيرت حولها كثيرة. فقد غدت اللغة العربية غريبة في ديارها، مع أنها لاقت اهتمامات واضحة، واحتراماً وتقديراً في بلاد أخرى ناطقة بغيرها. هذه اللغة التي وصفها الشاعر حافظ إبراهيم الذي حفظ فضلها بقوله:

وسعتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً	وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ	وتَنْسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ

لماذا لا؟ وقد كرّمها الله –سبحانه وتعالى– أيما تكريم، عندما أنزل بها الوحي، لتكون لغة التنزيل: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وهي لغة أهل الجنة: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا، ولغة خاتم الأنبياء، محمد بن عبد الله، النبي الأمين صلى الله عليه وسلّم، ولغة خاتمة الرسائل السماوية، لغة كافة الناس: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون. بل نجد تدريس اللغة العربية أصبح غريباً في وطنها الأصلي، مما جعل الدكتور طه حسين يصرّح في كتاب "الأدب الجاهلي" قائلاً: "إن لغتنا العربية لا تُدرّس في مدارسنا، إنما يُدّرس فيها شيء غريب، لا صلة بينه وبين عقل التلميذ وشعوره وعاطفته." ومن ثمّ، فهناك عقبات تقف في طريق تعليم اللغة العربيّة، ومن هذه العقبات، على سبيل المثال: القنوات الفضائية، برامج الشبكة العنكبوتية، التلفاز أو الإذاعة المرئيّة، الصحافة، المناهج الدراسيّة، مربيات الأطفال، اللهجات العاميّة، الدخلاء، ضعف المعلمين، عدم الرغبة، الوسائل التعليميّة، ضعف التعلّم الإلكتروني، الاغتراب إلى البلاد الناطقة بغير العربيّة، عدم الممارسة والتطبيق،

الازدواجيّة، التجنّس بجنسية الآخر... إلى آخره. إذن هذه المشكلات وغيرها هي العقبة الرئيسة في تعليم اللغة العربيّة، فعلينا الاهتمام بها ودراستها، وتحليلها، والسعي إلى إيجاد الحلول، وإزالة العقبات حتى يسهل الطريق لمحبي هذه اللغة العظيمة التي كرّمها الله عزّ وجلّ، خاصة وهي لغة الهوية، وموحدة الشعوب الإسلاميّة، هي لغة التراث، ولغة القرآن الكريم، وكما قال الشاعر:

لغة إذا وقعت على أسماعنا	كانت لنا برداً على الأكبادِ
ستظل رابطةً تؤلف بيننا	فهي الرجاءُ لناطقٍ بالضادِ

فكيف نتركها للزمان، وشماتة الأعداء، وكيد الكائدين، وحال لسانها يقول:

فلا تَكلُوني للزمانِ فإنني	أخافُ عليكم أن تحينَ وفاتي

ومن ثم فإننا سوف نعرض لهذه المشكلات، ونحاول أن نضع لها ما أمكن من الحلول المفيدة والمقترحات.

أولا: القنوات الفضائية

يندر أن تستخدم الفضائيات اللغة العربية الفصحى، لأنها –في الغالب– خطاباً مشبعاً باللهجات المحلية، وهذا يظهر في المسلسلات والأفلام العربيّة والمدبلجة بأنواعها المختلفة المتنوعة. وكان من الأفضل أن تكون هذه الفضائيات أحسن الأوعية التي تُعيد الحياة للعربية الفصحى على ألسنة المشاهدين العرب، بيد أنّ هذه القنوات تخلت عن ذلك. فمع انتشار الفضائيات العربية، أصبحت اللهجات العربية أكثر شيوعاً في إطار الرغبة في تأكيد وجود الثقافات الفرعية داخل الثقافة العربية، الأمر الذي يقوِّض أحد أسس الوجود العربي ذاته، ويُدعِّم تناحر الثقافات العربية الفرعية المختلفة (Sharif, 2004).

إن القنوات الفضائيّة أصبحت ظاهرة غريبة في مجتمع اليوم، قنوات لا تحصى، ولا تعدّ، فيها الصالح، وفيها الطالح. ولكن إذا أحصينا الأمر سنجد طالحها وفاسدها، أكثر من صالحها. والأمر واضح للجميع. فمنها مثلاً ما يشجع على الأفلام الفاسدة التي غايتها ببساطة هي نشر أفكار العالم الآخر الذي لا يمدّ إلينا بصلة من الصلات؛ التراثيّة، أو الدينيّة، أو الأخلاقيّة، أو الثقافيّة...الخ. والعدوة مع الأسف انتقلت إلى الأفلام العربية، وهذه الإفلام الرخيصة، جعلت من الجنس والزنة والشذوذ شيئاً عادياً في لغة منبوذة، وألفاظ جارحة، وكلمات، اللغة العربية بريئة منها، براءة الذئب من دم يوسف. وهذه اللغة من يتعلمها؟ بالطبع أبناؤنا. وفي زمن الحضارة هذا، فالقنوات الفضائية متوافرة في كل مكان وزمان، فكيف نقضي على هذه المهزلة؟ هذا بالإضافة إلى البرامج المبتذلة، والتي تُقدّم بلغة مبتذلة أيضاً، والأمثلة كثيرة على ذلك. وهنا نتساءل، من المسؤول؟ قيل ربّ البيت، ولكن ربّ البيت يكون حارساً لأبنائه في المنزل، وحتى في المنزل لا يستطيع أن يكون حارساً أميناً، وهو مشغول مع ربة المنزل في العمل الدؤوب من أجل حياة رافهة. وحتى إذا زعمنا حرصه على المراقبة، إذن ما هو الشأن خارج المنزل؟ إذن الحل الناجع، لابدّ للدولة أن تتدخل، فمثلاً في دولة ماليزيا، وهي نموذج إسلامي حقيقي، من وجهة نظري، استطاعت الدولة أن تمنع شراء وامتلاك "الدش"، أو الصحن الفضائي، وأن تفرض قنوات فضائية معينة، تراقب وتبث من قبل الدولة، أي أن الحكومة تسيطر عليها، وهذا ما أدّى إلى استعمال لغة مهذبة راقية بين الأفراد إلى حدّ كبير.

إن ضرورة الحفاظ على اللغة العربية الفصحى أشدّ ما نحتاج إليه اليوم، خصوصاً بعد دخول العرب إلى جانب العالم بأكثريته في مجال الإعلام الفضائي، الذي ألغى المسافات، وحوّل العالم إلى قرية صغيرة. هذا التطور يستدعي أن تواكبه لغة متطورة مرنة، تجمع وتوحد الشتات العربي بعد أن أمعنت فيه مرحلة الطباعة تمزيقاً، وأثيرت فيه دعوات الإقليمية والتجزئة، وتبني اللهجات المحليّة بديلاً من الفصحى الأم (Sharaf, 1980).

إن من يمعن النظر في واقع حال قنوات الإعلام العربي المرئي، أو الفضائيات، يجد أنها غير معنية بأزمة التعبير، بل إنها لا تبشر بخير، فمن الواضح أن اللغة العربية الفصحى تضيق وتختنق في معظم وسائل الإعلام، بطريقة تشعر أن بعض القائمين على هذه الأجهزة على عداوة راسخة مع العربية، حيث لا يعطونها من الوقت إلا القليل من وقتهم، ولا يمنحونها من البرامج إلا برامج معينة محددة قد لا يكون الإقبال عليها كثيراً، ولا يبرزونها للجمهور إلا بطريقة منفّرة (Al-Dhubaib, 2006).

وكذلك الحل يقع على أصحاب الفضائيات العرب أن يخافوا الله سبحانه وتعالى، وأن يبثوا برامج هادفة وبلغة عربية، ولو بسيطة، بعيدة عن العاميات، واللهجات، فاللغة الفصحى مفهومة للجميع، ولا نطالبهم باستخدام لغة غامضة ومعقدة، بل يكفي أن يستخدموا لغة عربية بسيطة مرنة سهلة مفهومة للجميع، وهكذا يسهمون في الارتقاء بالذوق العربي، ويكشفون عن جمال وروعة هذه اللغة التي كرّمها الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: الشبكة العنكبوتيّة

أصبحت الشبكة العنكبوتيةواقعاً ملموساً في حاضرنا، لا مناص منها؛ لكبير أو صغير. فالكل يجيد استخدامها. والشبكة العنكبوتية تحمل أنماطاً من اللهجات العربيّة، والعاميّات لا حصر لها، فأين مكانة اللغة العربيّة الفصحى بين هذا الكم الوافر؟ أحياناً أشاهد ما في هذه القنوات، واتّهم نفسي بالجهل، من كثرة المفردات والعبارات المستخدمة في هذه الشبكات العنكبوتية التي لا تمدّ للغة العربيّة بصلة، وأنت حائر بين هذه العاميّات، واللهجات، وهذا ما يذكرني وصف المتنبيّ لشعِب بوان– مع اختلاف الرؤية– حين قال:

ولكن الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسانِ

من هو المسؤول عن كل هذ؟ وكيف نعالج الموقف؟ لا شك أن المسألة تحتاج إلى التعاون من الجميع، وترك العمل من أجل جمع المادة، والربح الرخيص، فالمنزل يراقب، ووزارة التربية والتعليم تفرض المناهج المناسبة التي تقف حائلا دون هذه المهازل، فثقافة الفرد وتأديبه لها الأثر الناجع في تربية المجتمعات، والتربية تهذيب في استخدام اللغة. ولكن للدولة النصيب الأكبر في هذا الصدد، فشركات الانترنيت لها سيطرة من قبل الدولة إذا أرادت ذلك، وقد شاهدنا هذا في الربيع العربي، وفي مختلف البلاد العربية، كيف أن الدولة تستطيع أن تسيطر – إن شاءت– على الانترنيت، وتفرض عليه الرقابة. وربما هذا العمل يساعد الدولة في تنشئة الأجيال تشئة صحيحة، وموجهة، ونستطيع بهذا أن نطمئن على أبنائنا وبناتنا، وإلا فإننا لا نستطيع أن نحمي أبناءنا وبناتنا من لغة الأفلام العربية، والمدبلجة، والبرامج المبتذلة، والرسائل التي تبث بلغات منحرفة، لا تمدّ إلى اللغة العربية بصلة، والمحاضرات، والحوارات المفتوحة التي سادت فيها العاميات، واللهجات المحليّة التي لا تخدم شيئاً سوى اللهو والمزاح في طابعها العام تقرّباً للأميين من أبناء الشعب، حتى أن الأميين لهم ذوق في استيعاب وتذوّق اللغة الفصحى.

ثالثاً: التلفاز "الإذاعة المرئيّة"

نجد أن الإذاعة المرئية أو التلفاز يتمتع بقدرات هائلة بوصفه وسيلة سمعية بصرية في جذب الانتباه، واللغة ذات تأثير مباشر على المشاهد، إذا ما ترافقت مع الصورة، مثلما يحدث مع بعض البرامج حين يستطيع المشاهد الاتصال المباشر بالذين يشاركون في البرنامج، فوسيلة اكتساب اللغة عن طريق البث المرئي أو التلفاز لها آثار سلبية، لأن التركيب الخاص للغة، إذا ترافق مع الصورة التلفزيونية والمعلومة الحسيّة، يجعلان المشاهد يعيش علاقة معينة مع هذا الجهاز، ما أدى إلى خلق مشكلات اجتماعية ونفسية وأخلاقية، فضلاً عن مشكلة أعم وأهم ألا وهي المشكلة اللغوية، فبحجة أن تتوفر في الرسالة الإعلاميّة بعامة والإعلانية بخاصة، عناصر التأثير وتكون مقنعة بالمستوى المطلوب، تمادى محررو نشرات الأخبار والمذيعون ومقدمو البرامج في تبسيط المفردات والتراكيب، حتى غلبت الركاكة على اللغة الإعلامية، وكثرت فيها الأخطاء الجسيمة، ما حدا بعلماء اللغة أن يتصدوا لهذه المشكلة، ويقترحوا الحلول المناسبة (Al-Yaziji, 1984) وتبسيط اللغة لا ضرر فيه، ولكن أن تصل اللغة حدّ الركاكة، فهذا بالطبع غير مقبول.

والتلفاز وسيلة ذات جمهور واسع تستغرق أكبر وقت من مشاهدة الناس، وتجده في كل مكان. كما أنه يقدم أنماطاً من السلوك الاجتماعي واللغوي تفتقر إليها وسائل الإعلام الأخرى، والتلفاز أحكم قبضته على الأسرة، واحتلّ صدر المجالس في الدور بلا منازع أو منافس، وتربع فيها بشموخ منقطع النظير، وأكثر روّاده الأطفال. والخطورة تكمن هنا. فكل أفلام الكرتون يشاهدها الأطفال، إمّا باللغة الإنجليزية، أو اللغة العامية، واللهجة المحليّة. والتلفاز هو المعلّم الأول لأطفالنا خاصة من السنة الأولى إلى العاشرة، لأن الأب والأم يعملون صباحاً ومساءً من أجل كسب الأجر المناسبة للمعيشة، والمربية لها أعمالها بالمنزل، إذن من يصاحب الطفل في هذه الرحلة الطويلة؟ دون شك هو التلفاز، لا حلّ سوى مراقبة الدولة لبرامج الأطفال، والبرامج الأخرى.

فقد ساد التلفاز، أو الإذاعة المرئية العالم، وتعددت محطاته، وتنوعة باختلاف ثقافات الشعوب والدول. ونستطيع أن نشير هنا، أن الإذاعة المرئية أو التلفاز بالطبع تسيطر عليه الدولة، لأنه في المقام الأول يبث سياساتها المعلنة، ويعمل بتوجياتها، ولذا فهو يلاقي اهتماماً خاصاً من قبل الدولة. ولكن رغماً عن هذا نجد هناك، وخاصة في النشرات الإخبارية بعض الهفوات التي لا تُخفى على ذي بال. ويظهر هذا أيضاً في البرامج التي تقدّم، فالحديث فيها يميل إلى العاميّات. امّا الأفلام والمسلسلات، ففي كثير من الأحايين تخلو من الرقابة، والجودة اللغوية، وربما ترى هذه الجودة في المسلسلات والإفلام الإسلاميّة، حيث تجد اللغة التي تستريح إليها، وترغب في سماعها. وظاهرة جميلة أن ترتبط البرامج الإسلاميّة باللغة العربية الفصحى، وهذا مخرج جميل نحافظ به على لغتنا الجميلة هذه. ولكن مع الأسف أن هذه الأفلام والمسلسلات موسمية، حيث تظهر في مواسم معينة من السنة، وخاصة في شهر رمضان، وهذا الشهر فيه رحمة للغة العربية الفصحى واستخداماتها المختلفة والمتنوعة، ففيه لطف بالعباد، ولغة العباد. ولكننا لا نفي مسؤولية الدولة في هذا الموضع، لأن الدولة هي المسيطر الأول، والموجه للإذاعة المرئية أو التلفاز.

ومن هنا تقع المسؤولية على عاتق الدولة ورقابتها، وهنا نستطيع أن نحافظ على اللغة الفصحى، ونضمن نشرها على كل العالم الذي يلتقط بثّ هذه الإذاعات المرئية، من جميع بلدان العالم العربي الذي يقع على عاتقهم هذه المهمة المقدسة.

رابعاً: الصحافة

يتفق معظم الباحثين والدارسين على أن الإعلان يؤثر تأثيراً بليغاً في مجمل النواحي الإنسانية، ويسحب الإنسان دون وعي إلى هدفه المنشود. هذه القاعدة تنطبق حتى على أولئك الذين يدّعون أن لديهم المناعة القوية لمواجهة الأساليب المختلفة التي يستخدمها الإعلان لتحقيق مآربه. والسبب في ذلك يعود إلى معرفة مصممي الإعلان بالعوامل النفسية والفكرية للإنسان، ما يجعلهم يتعاطون مع عالم اللاوعي لدى الفرد، فتؤثر فيه الإعلانات دون أن يشعر أو يدري. والأكثر تأثيراً بهذه الطريقة هو الإنسان غير العارف بالهدف النهائي للإعلان، أو حتى الطريقة التي يقدم بها (Jeffrey, 2018).

إن المتتبع لوسائل الإعلام التقليدية منها والجديدة يلمس بوضوح ما تتعرض له اللغة العربية من تشويه يصل إلى حدّ الإلغاء والإقصاء بعد أن كانت الشكوى من اللحن في اللغة، انحدر الأمر إلى تقديم اللهجات العامية على اللغة الأم، ثم استمر الانحدار إلى استبدال اللغة بكلمات، وجمل غريبة. وفي الإعلام الاجتماعي نحت المغردون وأمثالهم أحرفاً جديدة لا تمت إلى أي من اللغات بصلة حتى استبدلت الأحرف بأرقام، واستمر الإنحدار... إن اقصى ما نطلبه من أجهزتنا الإعلاميّة احترام قواعد اللغة والمعايير المنظمة لها، مما يضفي على الرسالة الإعلامية أناقة وجمالاً، ويسهم في رفع ذائقة الجمهور المستهدف. واستثمار التطور التقني في مجال الإعلام والاتصال في تعزيز الوحدة العربيّة الإسلاميّة والعمل على إعادة الانسجام للنسيج اللغوي، وتجنب الدعوات الرامية إلى توسيع هوة الخلاف العربي من خلال تمزيق النسيج اللغوي إلى مجموعة من اللهجات المتنافرة التي تبث الفرقة أكثر مما تجمع الشمل العربي، أو تساهم في تعميق التغريب في المجتمعات العربية، وسلخها من موروثها وعمقها الحضاري (Al-Ghassani, 2012).

ينبّه الشيخ اليازجي على الأخطاء الكثيرة التي تعمّ الصحف قائلاً: فليراقب كتّاب الجرائد الله فيما يملون على الأمة، وليعلموا أن ما يخطونه في خلواتهم إنما يجرون به أقلامهم على صفحات القلوب تنطبع فيها كلماتهم بحروفٍ لا تُمحى (Al-Yaziji, 1984). يعتقد البعض أن الصحافة بمنآة عن استخدام اللغة الفصحى، لأن طابعها هو نقل الأخبار السريعة، وهو الهدف الملازم لها. ونقل المعلومة بهذا الشكل قد لا يساعد في التدقيق اللغوي اللازم. ولذلك هذه هي محنة الصحافة. ولذا نجد الصحافة لعبت دوراً – مع الأسف – بارزاً في تعميم اللهجات المختلفة، وهي البحر الزاخر من ناحية الأخطاء اللغوية، وعدم دقّة العبارات المستعملة، وكأنما قصد من كل هذا هو الفهم العام للنص المقروء، بأي طريقة كانت، بعيداً عن الاستخدام الصحيح والسليم للغة الفصحى. ومسؤولية هذا المسألة تقع على الفرد الذي يقوم بتحرير هذا العمل الصحفي، والدولة التي تمتلك بعض المؤسسات الصحفيّة، وأيضاً القطاع الخاص الذي يمتلك جزءاً من هذه المؤسسات الإعلاميّة.

خامساً: البعد التربوي

إن عالمنا العربي مطالب في تلك اللحظة التاريخيّة بالذات أن يسعى إلى إيجاد تربية إسلاميّة خاصة به، تعيد له هُويته الإسلاميّة الواحدة المتميّزة، وتكون تلك التربية هي أداة نهضته، واستعادة أمجاده، وحضارته، ومثل تلك التربية الإسلاميّة المنشودة ما زالت تحتاج إلى كثير من التفكير الجاد والبحث المتواصل لإيجاد بناء فلسفي، وتطبيقات تربوية لتحقيق هذا البناء، وهو عمل يحتاج إلى جهد جيل كامل من الروّاد، يعيشون لهذا الهدف، ويجندون كل القوى والطاقات من أجل تحقيقه، وبدون ذلك، فسوف تُكرّس النظم التربوية الحالية واقع التجزئة في العالم العربي، وتكون أداة لاستئناس الإنسان العربي وإذلاله، وسيكون من السهل بعد ذلك اختراق وعيّه وإخضاعه سياسياً واقتصادياً وثقافياً، لما يسمى حالياً بقوى العالم الجديد، أو النظام العالمي الجديد (Al-Naqib, 1992; Al-Naqib, 1997).

ندرك –من هنا– أهمية البعد التربوي بوصفنا أمة إسلاميّة واحدة، تحب أن تبلّغ أمانتها، وتربّي أبناءها على المثل والقيم الإسلاميّة لا المادية أو العلمانيّة. والذي يتأمل خريطة العالم الجديد وقواه السياسية والاقتصادية الحاكمة والعسكرية المسيطرة، يعلم علم اليقين أن تلك القوة بحكم طبيعتها بعيدة كل البعد عن هدى السماء. إنما هي قوة يغلب عليها فكرة السيطرة على الطبيعة بواسطة العلم، والسيطرة على الإنسان بواسطة التقنية، والسيطرة على الشعوب المستضعفة بواسطة القوة العسكرية والاقتصادية، هي قوى تعبد القوة والرفاهية واللذة (Ghannouci, 1984). بل هي قوة حصلت على شيء من العلم، لكن غابت عنها الحكمة، واغتالت السمو الروحي، والأخلاق للإنسان، ووضعت حاجزاً بين العلم والتقنيّة من ناحية، وبين الحكمة من ناحية أخرى (Hasan, 1990). ومثل هذه القوى لا يّنتظر منها أن تقود العالم إلى سلام حقيقي، أو عدالة حقيقة، بل من المنتظر أن تقود العالم إلى مزيد من الانغماس الكامل في اللهو والمجون والسكر والجنس والعنف الذي يشمل الأفراد والشعوب والدول (Armstrong, 1975).

لا شك فالبعد التربوي يمثل جانباً مهماً من جوانب الحياة البشرية على الأقل، ويكون السبيل إلى تحقيقه أنبل وأشرف صيغ الوجود، وتحقيق المجتمع الزاهر،ونحن نواجه هذا العالم الجديد، ومن أجل ذلك لا بدّ أن تتجه الأمم والشعوب إلى نظمها التربوية ، تبحث فيها عن أسباب الأزمة الحقيقية، وتلتمس من خلال تغيير تلك النظم التعليمية، وسائل تجاوزها، وعالمنا العربي يكاد يجمع على فشل تلك النظم التربوية الحالية في تحقيق آمال الأمة في التعليم، وهذا إجماع يشترك فيه رجل الدولة، ورجل الشارع على السواء، ولكن هذا الإجماع يقابله اختلاف في الرأي حول كيفية العلاج التربوي الناجع لهذه الأمة، وإن كان البعض ما زال يعتقد أن كل ما يحتاجه التعليم في بلادنا هو نوع من الإصلاح التربوي يتناول هذا الجزء أو ذاك من النظام التعليمي: المناهج، إعداد المعلم، المباني المدرسية، الإدارة، التمويل. وهناك من يرى أن ما نحتاجه ليس مجرد الإصلاح التربوي، بل التغيير الشامل أو الثورة التربوية، ولكن الثورات التربوية الحقيقية لا تأتي في ظل أوضاع جامدة بل تحتاج إلى ثورات جذرية داخل المجتمع بحيث يعكس التعليم الجديد روح االمجتمع وهويته وثقافته (Goodlad, 1975).

ومع هذا يأتي سؤال مهم جدا: ما هو المقصود بالتربية في عالمنا الإسلامي؟ يرى بعض علماء التربية أنها ذلك النظام التربوي والتعليمي الذي يستهدف إيجاد إنسان القرآن والسنة، أخلاقا وسلوكا، مهما كانت حرفته أو مهنته، وهو إنسان مستخلف لله في الأرض بما يتطلبه هذا الاستخلاف من الكدح المستمر في سبيل إيجاد نوعية راقية من الإنسان، راقية من الناحية البدنية والعقلية والروحية والمهنية والحرفية، وهو إنسان أنتجته التربية الإسلاميّة في عصورها الزاهرة، وما زالت قادرة على إنتاجه اليوم إذا قُدر لها أن تُطبق في مؤسسات تربوية معاصرة (Al-Kilani, 1988)، وكذلك (Al-Douri, 1987)، ولكن أهم من ذلك كلّه، عدم وضوح الفلسفة التي بُنيت عليها تلك المؤسسات، والتنظيم الذي تبنته تلك المدارس، لتحويل الفلسفة إلى واقع تربوي أكثر فعالية في تربية الإنسان المسلم الجديد القادر على مواجهة تحديات العصر في ظل ظروف داخلية، وعالمية غير مساعدة.

قامت الباحثة فتحيّة الفزاني، بوضع قائمة بالأهداف التي يمكن أن يسترشد بها الباحثون، وقد استعانت في ذلك برأي كثير من خبراء التربية الإسلاميّة، وإليك هذه الأهداف (Al-Ghazani, 1991):

1- صياغة نظرية تربوية إسلاميّة واضحة المعالم يمكن تطبيقها في واقعنا في ضوء كل من:
   a. المصادر الأصليّة للتربية الإسلاميّة المتمثلة في الكتاب والسنة.
   b. الصحيح والمناسب من معطيات الفكر والتطبيق التربوي الإسلامي والعالمي.
   c. حاجات المجتمع ومتطلباته الحالية والمستقبليّة.

2- الكشف عن تاريخنا التربوي عبر العصور بما يتضمنه من أفكار وشخصيّات وتطبيقات تربوية للاستفادة من هذا التاريخ في صياغة الفكر التربوي الإسلامي المعاصر.
3- تحديد القوى والعوامل المؤثرة في إبعاد التربية عن الإسلام، ووضع الخطط العلميّة لتجاوز هذا الواقع التاريخي.
4- دراسة الأفكار العالميّة، والنظم التربوية دراسة مقارنة، والاستفادة من الحلول المختلفة التي تقدمها للقضايا التربوية المشابهة في المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة بما يحقق أهداف التربية الإسلاميّة.
5- إبراز وتوضيح دور التربية الإسلاميّة كبديل في إخراج الفكر التربوي العالمي من أزمته الراهنة.
6- إبراز وتوضيح دور التربية الإسلاميّة في مواجهة حاجات المجتمع المسلم، وتطلعاته المستقبلية بما يوافق وجهة النظر الإسلامية.
7- تنمية البحث العلمي الذي يخدم الفكرة الإسلامية، ويمكن العالم الإسلامي من أداء دوره القيادي في بناء الحضارة الإنسانيّة.
8- الإسهام في رفع مستوى التعليم في العالم الإسلامي، وتطوير وسائله في جميع مراحله.
9- إعداد جيل من خبراء التربية الإسلاميّة يستطيعون تدعيم نهضة العالم الإسلامي في جميع المجالات التربوية، وعلى مختلف المستويات التعليمية.
10- إعداد المعلم والأستاذ الجامعي القدوة المتميز علميّا وتربويّا وإسلاميّا.
11- إعادة صياغة المناهج الدراسية والجامعية في العالم الإسلامي بما يناسب التوجه الإسلامي للتربية.
12- الإعداد العلمي لإقامة مدارس وجامعات تجريبية لتجريب تعميم التربية الإسلاميّة في عصرنا الحديث.
13- تقويم العمل البحثي الذي تم إنجازه في ميدان التربية الإسلاميّة بقصد تنميته وتحسينه وتطويره.
14- إحياء التراث التربوي الإسلامي، والاستفادة منه في خدمة القضايا التربوية المعاصرة.
15- البحث عن أساليب أكثر فعاليّة لتنمية الترابط والتعاون العلمي والتربوي بين دول العالم الإسلامي.
16- الكشف عن الوضع الثقافي للأقليات المسلمة في العالم، وسبل الحفاظ على هويتها الإسلاميّة.
17- توضيح أهميّة اللغة العربية، وسبل دعمها ونشرها بين المسلمين.
18- إبراز أهمية التوجه الإسلامي للمؤسسات التربوية غير النظامية داخل المجتمع.

وهذه الأهداف مصادر اشتقاق لموضوعات تربوية كثيرة تكون جديرة بالبحث والتنقيب، وهذا إذا دلّ على شيء، إنما يدلّ على أنه ما نزال أمام طريق طويل حتى نحقق هذه الأهداف الجديرة بالدراسة.

إذن من كل هذا يتبين علاقة مناهج التربية، ومدى تأثيرها في تقويم أو تقييم اللغة العربية، فالعلاقة وشيجة بينهما، فلا ننسى أن اللغة العربيّة هي لغة القرآن، والحديث النبوي الشريف، وخاتم المرسلين، الرسول الكريم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلوات، فارتباطها بكل هذا يمنحها القوة والثبات والخلود. ومن ثمّ فالبعد التربوي له تأثير مباشر على الحفاظ على لغة القرآن الكريم، لأن بتأهيل الأستاذ تربوياً، نستطيع أن نطمئن على إعداد مدرسي اللغة العربية إعداداً تربوياً صحيحاً، وبذلك يمكن أن يكون مدرساً صالحا، لإعداد أبنائنا وبناتنا نحو مستقبل أفضل في تعليم هذه اللغة الخالدة وإجادتها.

سادساً: مربيات الأطفال

لعب هذا الموضوع دوراً بارزاً في تعليم اللغة العربية، وخاصة في بلاد الخليج العربي، وهذا واضح لكل ذي بصر، وبصيرة. فمربيات الأطفال أغلبهم من الأجانب الذين لا يتقن اللغة العربية، بل ولا يتحدثن بها، وحتى من يتحدثن بها، تأتي لغتهم منحرفة في النطق، وفي العبارات،

والألفاظ. وقد خُلطت بلغات أخرى، وألفاظ لا عهد للغة العربيّة بها. وهذه مشكلة كبرى، يجب أن يسرع في علاجها، فهي —دون أدنى شك— تُهدد اللغة العربية، في عقر دارها، فالطفل ينشأ وترسخ في ذهنه هذه اللغة المحرّفة، وأكيد من شبّ على شيء شاب عليه، أوكما قال الشاعر:

إن الغصونَ إذا قوّمتها اعتدلت　　　ولن تلينَ إذا قوّمتها الخشبُ

فإذا لم يهتم الجميع بتربية أطفالهم، وممارستهم للغة العربيّة، وتركوا هذا للمربيات بالمنزل، فإن اللغة العربيّة لا محالة ستكون في خطر. إذن يجب ألاّ نترك أطفالنا أيتاماً، يجب على الوالدين الاهتمام بأطفالهم، وألاّ يأخذ العملُ كلَ جهدِهم، فاليتيم هو الذي لا يجد حقاً من يرعاه، كما قال أحمد شوقي (Shawky, 1975):

ليس اليتيم من انتهى أبواه من　　　همِّ الحياةِ، وخلّفاه ذليلا
إن اليتيمَ هو الذي تلقى له　　　أمّاً تخلّت، أو أباً مشغولا

إذن لا بدّ أن نهتمّ بتربية أبنائنا، ونعلمهم اللغة العربية السليمة، ونشجعهم على الحفاظ عليها، والذود عنها، واحترامها، لأنها تراثه وهُويّته، ولغة القرآن، وتعلُّمها من الإسلام كما ذهب الإمام الطبري.

سابعاً: الاغتراب، وظاهرة التجنّس، وثنائية اللغة

الاغتراب له فوائده، ومضاره بالنسبة لأطفالنا، ومن هذه المضار، هو ترك اللغة الأم، واستبدالها بلغة المهجر، وهذا يحدث لدى كثير من الأسر المهاجرة أو المغتربة. لأن البيئة تساعد الطفل على اكتساب اللغة المستخدمة في بيئته الجديدة بسرعة فائقة، وبالتالي فهو مجبر على استخدام لغة الآخر وإجادتها، لأنها لغة الشارع، ولغة البيئة الجديد، ولغة الاتصال والتعامل مع الآخر. كما أنها لغة المدرسة والجامعة، والعمل. فالتركيز عليها –في رأي– يكون أكثر، ويكون التركيز على اللغة الأم أقل؛ لأنها لا تستخدم إلا في المنزل عند الحرصين من الآباء، والحادبين على تعليم أبنائهم للغة العربية.

هذا بالإضافة إلى تركيز الآباء على العمل للحفاظ على الوظيفة، فلم يكن لديهم وقت للاهتمام بهذا الجانب، بل نرى البعض ينغمس في المجتمع الجديد بكل كيانه وذاته، ويجبر أبناءه للحديث بلغة الأخر. وهنا تكون الكارثة الكبرى، بحيث ينسى الأبناء لغتهم الأصليّة، وينخرطون مع الآخر في كل ما يفعل. بل ينسلخ من جلدته، ويصير هو الآخر. أو يتغمس شخصيته بكاملها. وهنا يكون مصدر الخطر، وتموت مع الزمن اللغة الأم، وتحلّ اللغة الدخيلة مكانها، بمنتهى السهولة والتلقائية.

وقد كثر هذا الأمر —مع الأسف— وأصبح الواقع الذي نعايشه الآن، وقد يكون الاغتراب في أغلب الأحيان آتٍ من ضيق حاجة اليد، أو الأوضاع التي يمرُّ بها المغتربون في أوطانهم، مثل عدم وجود الفرص الكافية للعمل، أو عدم الاحترام والتقدير، أو عدم تحقيق الآمال والطموحات ...إلى آخره. ولكن الأمر يحتاج إلى دراسة عميقة، لأنه انتشر وأصبح شائعاً في أغلب المجتمعات العربيّة.

أمّا المسألة الثانية، فهي قضية خطيرة؛ وهي ظاهرة التجنس، والانخراط في ثقافة الآخر، وتمجيدها، وتعظيمها، مع نسيان الفرد لثقافة وتراثه وهويته، ولغته الأم. وهنا تكون المسألة آلية، الانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى، والتطبع بصفات تلك البيئة الجديدة. لأنه أصبح عضواً فاعلاً فيها، بل جزءاً لا يتجزأ منها. وهنا —مع الأسف— ينشأ الأطفال وقد ارتوا من تراث الآخر، ووصلوا إلى درجة التشبع، بل انصهروا في ثقافة الآخر، وأخذوا يمجدونها، ويعلون من شأنها، ومكانتها، وتناسوا ثقافتهم، وهُويتهم. وكأنما يرون في هذا موضعاً للتعالي والافتخار. وفي رأي هذا ضعف، وعدم ولاء للوطن الأصلي الذي نشأ فيه الفرد، ولا عذر له في ذلك، حتى وإن جارت عليه بلاده، كما قال الشاعر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة　　　　وقومي وإن ضنّوا علي كرام

أو كما قال أحمد شوقي:

وطني لو سُئِلتُ عنه في الخلد يوماً　　　　نازعتني إليه في الخلد نفسي

والعلاج لهذه المشكلة هو أن يبحث المغترب عن مدرس — إذا وجد — في تلك البيئة لتعليم أبنائه اللغة العربيّة، أو العودة إلى الوطن، وهذا يحدث كثيراً عندما ينتبه ربّ الأسرة إلى تغيير طباع إبنائه، وإنجرافهم نحو المفاسد.، وعدم طاعته، وعصيانه، ولكننا نتساءل لماذا لا يتمّ الأمر مبكّراً؟

والمسألة الثالثة، هي ثنائية اللغة. والثنائية تعني قدرة الفرد على استعمال لغتين مختلفتين يمكن اعتبارُ كلٍّ واحدة منهما بوجه أو أكثر أصليةً بالنسبة له (Istaitia, 1995). فلا ترادف بين الازدواجية والثنائية، فالأولى تعني وجود مستويين لغويين في إطار اللغة الواحدة: أحدهما رفيع، والآخر عامي منحرف. أمّا الثنائية، فتعني أن يكون المستويان اللغويان لسانين مختلفين. ولا يتعلّق أحدهما بالآخر تعلّق الفرع بالأصل (Mujahid, 2005).

ونذكر على سبيل المثال الجزائر حيث طغت اللغة الفرنسية على اللغة الأم فصارت هناك ازدواجية، بل وثنائية، وهذه الازدواجية أو الثنائية أضعفت اللغة الأم حيث يجد يجدون صعوبات كبيرة في التعبير عن أفكارهم، وآرائهم باللغة العربية الفصحى (Salman, 2014). وهذه الثنائية أدّت إلى الترويج للكلمات الأجنبية في وسائل الإعلام، حيث تسللت بعض الكلمات الأجنبية إلى اللغة العربية، ووسائل الإعلام المختلفة، بقصد أو بغير قصد. ويظهر هذا في كثير من البرامج التي تعتمد على الحوار والمناقشات العفوية التلقائية. ولو كان هذا الشخص مجنّس لقلنا هذا من ضعف اللغة، وتأثرها باللغة الأخرى. أو لو كانت هذه الكلمات تمثل مصطلحات علمية لقلنا ربما رجع السبب إلى المجمع اللغوي الذي لم يقم بدوره في تعريب، أو ترجمة هذه المصطلحات، ومن ثمّ يمكن التماس العذر لهؤلاء، لكن المؤسف — حقاً— أنها كلمات وعبارات عادية من لغة التعامل اليومي، ولها في العربية ألف مقابل، إذن لماذا التغني بها؟ ربما يكون هذا لإدراك حاجات في نفس الإنسان، وقد تكون —في أغلب الأحيان— لا أهمية لها، ولا ضرورة فيها. وإنما يأتي هذا على سبيل التفاخر، أو قلّة المفردات. ولذلك يجب على الأفراد التنبّه لهذه الظاهرة، ونبذها.

ثامناً: ضعف المناهج، والتأهيل التربوي

عدم الاهتمام بمدرسي اللغة العربية، وتأهيلهم لأداء واجبهم أصبح ظاهرة خطيرة، لأن الاعتقاد كل من هو عربي يصلح أن يكون مدرساً للغة العربية دون تأهيل. ولذا كثير من لم يجد له وظيفة من أصحاب التخصصات الأخرى، يمكن بكل بساطة أن يُعيّن مدرس للغة العربية دون تأهيل، لأن اللغة العربية –في ظن الكثيرين– لا تحتاج لهذا التدريب، ناهيك أن مدرس اللغة العربية –مع الأسف– لا يجد مكانة لائقة به وسط أقرانه، والمجتمع المحيط به. إذاً يجب أن يمنح أصحاب هذه المهنة تقديراً وتأهيلاً، واعتراف المجتمع به، واحترامه وتقديره.

ونشير هنا إلى بعض المقترحات لتطوير مناهج التربية.

النظرة الإيجابية والشموليّة

لابدّ أن تكون نظرتنا إلى التربية إيجابية وشاملة، فالحياة لا تستقيم دون دين وعمل، والعلم والعمل بدون إيمان أو خُلق، يكون ضررهما أكبر من نفعهما.

إقامة المؤتمرات العالميّة

عقد مثل هذه الندوات والمؤتمرات العالمية –دون شك– يساعد كثيرا في تطوير مناهج التربية، ويقدّم ما يحتاج إليه الطلبة، وما يحتاج إليه المجتمع، وما يحتاجه القائمون بأمور التربية.

التدرّج في وضع المناهج للمؤسسات التعليمية

يجب التدرج في تخطيط المنهج التربوي للمراحل المختلفة، فالتربية هي تربية دائمة من المهد إلى اللحد.

التأهيل التربوي للمعلمين

يُطلب من كليات التربية أن تخرّج معلمين مؤهلين مهما كانت فروع اختصاصهم، فهذا يساعد في أداء الدور المنوط به، فالمعلم في خاتمة المطاف مربي، وأبّ فاضل، وموجه.

المنهجيّة في تعليم التربية

فلا ينبغي أن نغالي في التلقين، وننسى جانب التفكير والانتقاء، فالطالب ينبغي أن يكون مفكرا ومتأملا وعالما بما يحيط به، ويكيد له، فالانشطار بين الاتجاه السلفي والانتقائي لا يفيد الأمة في شيء، بل يكون الناتج هو التمزق والتشتت والانهيار. والتربية الحديثة ينبغي أن تكون تربية ممارسة عمليّة، أي أن تتحول إلى عمل مفيد للأمة مثمر للشعوب.

البيئة والقدوة الحسنة

لا ننسى أن للقدوة الحسنة والبيئة أثرهما في تكوين الفرد تربويا، وهنا ينشأ الطفل في بيت يمارس الحياة النقيّة، ويدرس في مدرسة يتصف مدرسيها بالأخلاق الفاضلة، والقيم، والمثل، وإثارة العواطف الدينية إثارة إيجابية، لإحياء روح الدين وسيطرته على النفس، وتوجيهه للسلوك والمعاملات الإنسانيّة الكريمة الهادفة، وإنكاره لما يخالف ذلك.

منهج التيسير في تدريس المواد التربوية

علينا اتباع هذا المنهج في تدريس المواد التربوية، وذلك بتوضيح ما تشتمل عليه من ألفاظ ومعارف لإزالة ما رسب في أذهان التلاميذ من صعوبتها، وعجزهم عن إدراك حقائقها.

الترغيب في قراءة الكتب المفيدة والثقافات المختلفة

ترغيب التلاميذ في قراءة الكتب المفيدة التي توضّح فضل العلم، ومكانته في تقرير المبادئ الإنسانيّة، والاجتماعيّة، والاقتصادية؛ كالحرية، والديمقراطيّة، والشورى، والإخاء، والمساواة، والاتحاد.

تثقيف مدرّس المواد التربوية

يجب إحاطة المدرس الكاملة بالمادة، واطلاعه الواسع على التاريخ التربوي؛ قديمه وحديثه حتى يستطع التوضيح والبرهنة والإقناع بما يّقدم من نصوص وأدلة وشواهد. وبالإضافة إلى تنوع طرق التدريس للإثارة والتشويق وإشباع الحاجات، لتجنب السأم والملل.

استيعاب خصائص التربية الحديثة والثقافات المختلفة

يجب أن يستوعب مدرس التربية خصائص التربية الحديثة والثقافات المختلفة، والعمل على متابعة متضمناتها في محتوى المنهج، وطرائقه، ووسائله، وأساليب تقويمه، والتحقق من تمثيلها في مجمل الأنشطة العلميّة المدرسيّة.

التكامل والشمول بين فروع المادة

التأكيد على الشمول والتكامل بين فروع التربية الإسلاميّة، بدءا من تحديد أهدافها ومحتوياتها وطرائقها، ووسائلها، وأساليب تقويمها، واعتبارها عمليّة موحدة متصلة الحلقات.

متابعة الفكر التربوي الحديث والمعاصر

يجب متابعة الفكر التربوي الحديث، والانتفاع بالجهود العلميّة والعمليّة في مجال بحوث التربية المعاصرة، لمواجهة المشكلات المختلفة التي تتناثر بين أرجاء الوطن العربي، وتنمية فكر تربوي إسلامي متميز، ونشر المفاهيم والاتجاهات المترتبة عليه.

تاسعاً: الازدواجيّة بين العامية والفصحى

مشكلة الفصحى والعامية -في رأي- من المشاكل المعاصرة التي تواجه العربية، وهي أهم مظهر من مظاهر التحديات، وهي قضية صنعها الاستعمار وأعوانه، عندما وجدوا لغة عليا للفكر والأدب، وهي الفصحة، وفي المقابل وجدوا لغة مستعملة في التخاطب اليومي، وهي العامية، وهذا أمر موجود في كل اللغات، وليس ثمة مشكلة في ذلك، ولكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية في اللغات؛ ليحارب بها اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن.

اللغة العربية هي تلك الصورة الأدبية الرفيعة التي تمثل فصاحة الأدباء، والبلغاء من الشعراء والحكماء الذين اشتركوا جميعاً في تكوينها. وقد ازدهرت هذه اللغة ونمت وترعرعت في قلب الجزيرة العربية المتمثلة بمكة المكرمة، لأسباب وعوامل عديدة (El-Bahnasawy, 2004). والعجب أن نرى بعض المستشرقين، وعلماء الغرب يشيدون باللغة العربية، ويذكرون أبرز سماتها، ويعترفون بفضلها، بينما نجد من أبناء جلدتها من ينعاها، ولا يريد لها الاستمرار، ويريد أن يطمسها بالعامية، أو يستبدل بها لغة أخرى هي في رأيهم أقدر على مواكبة العصر والتطور. ولعلهم استمعوا إلى بعض علماء الغرب في تعضيض اللغة العربية، ورفع شأنها.

يقول يوهان فك بأن تمثل الفصحى رمزاً لغوياً لوحدة العالم الإسلامي. وقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يُقصد بها زحزحة الفصحى عن مقامها المسيطر (Awad, 2000). ويذهب جاك بيرك الفرنسي إلأن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية، بل اللغة العربية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، وكانت عاملاً قوياً في بناء الشعوب العربية (Awad, 2000).

وعن عظمة اللغة العربية وعبقريتها، يقول المستشرق جرونباوم في مقدمته لكتاب "تراث الإسلام" إلى أن اللغة العربية هي محور التراث العربي الزاهر، وهي لغة عبقرية لا تدانيها لغة في مرونتها واشتقاقاتها، وهذه العبقرية في المرونة والاشتقاق اللذين ينبعان من ذات اللغة جعلتها تتسع لجميع مصطلحات الحضارة القديمة بما فيها من علوم وفنون وآداب، وأتاحت لها القدرة على وضع المصطلحات الحديثة لجميع فروع المعرفة.كما يذهب المستشرق الألماني كارل بروكلمان الذي أرّخ للفكر والتأليف العربيين في العصر الجاهلي حتى الآن في سلسلة كتبه الشهيرة "تاريخ الأدب العربي"، يقول إنه بفضل القرآن بلغت اللغة العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أية لغة أخرى (Brockelmann, 1995).

واللغة العربية لا تنتمي إلى بيئة محليّة معيّنة. فلا يمكن القول عن اللغة العربية أنها لغة قريش وحدها أو هذيل أو تميم، وإنما هي مزيج من لغة هؤلاء وغيرِهم من العرب، وقد كونت لها شخصيّةً وكياناً مستقلاً، ومكاناً مرموقاً، وإن كانت لهجة قريش قد أسهمت بنصيب أوفر من غيرها في بناء اللغة الفصحى المشتركة (Abdel Tawab, 1967). وخصائص اللغة العربية الفصحى كثيرة جدا منها؛ البيان، والقدسية، والاتساع، والمرونة، والإعراب. فهي لغة مرنة قادرة على استمرار الحياة رغم تعاقب الحضارات عليها، وقد استطاعت خلال

مراحل متعددةٍ من عمرها أن تجدد نفسَها، وقد منحها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مساحة واسعة، وقدّم لها ثروةً لغويّةً جديدةً، وقدسيّة تليق بها، يقول الشيخ محمد عبده: أن يأخذ الإنسانَ شعورٌ بالعزةِ والفخرِ في كون اللغة التي ينطقُها هي نفسها لغة الوحي، وهي نفسها لغة الرسول الكريم (Awad, 2000).

اللغة العاميّة، هي لغة الخطاب اليومي في البيت والمدرسة والمسجد والسوق والعمل، ولا تخضع لقوانين معينة، وتقبل التغيير والتبديل حسب الظروف، ويسميها بعضهم لهجة، ويعرّفها بأنها مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة معينة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئتُها هي جزء من بيئة لغوية أوسع وأشمل، تنتمي لجهاتٍ متعددةٍ لكل منها مميزاتها وخصائصها. ولا بدّ أن تشترك في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تُيسّر اتصال أفراد هذه البيئات، وتعامل بعضهم مع بعض (Anis, 1965). ونجد بعض الباحثين يسميها اللغةَ الهجينَ، أو اللغةَ المولدةَ؛ لأنها نشأت من تفاعل الشعوب، والثقافات المختلفة بعضها مع بعض (Istaitia, 1995).

والعامية لغة مرنة سهلة لا غنى عنها، لها قدرة على التشكيل بالبيئات التي تحل بها أكثر من الفصحى، لأن الفصحى لغة الدين والثقافة والفكر، وذلك يفرض عليها قيوداً معينة، مما دعا إلى وجود وسيلة تعبيرية أقدر على تلبية حاجات الناس اليومية العابرة وهي العامية (Saeed, 1997). ولكن لا يعني ذلك أبداً أن تحل العامية محلّ الفصحى، فلكل منهما مجالها، ووظيفتها، والعامية رغم مرونتها وسهولتها كما يبدو للجميع، إلا أنها تمثل جسماً غريباً وحشياً غير مفهوم لدى أصحاب اللهجات الأخرى، لأن العاميات متعددة لا تكاد تنحصر.

واللهجات العربية الحديثة أو العاميات مختلفة اختلافاً كبيراً عن بعضها، والاختلاف بين هذه اللهجات يرجع إلى أسباب عديدة منها صوتية وهي الكثير الغالب، وقد يرجع إلى بنية الكلمة، أو يرجع إلى المعنى، أو إلى الجانب النحوي، كصيغ الأفعال، وأنواع الجموع، وأدوات التعريف، ولكن نجد أن الجانب الدلالي والنحوي، إضافة إلى الصرفي أقلّ حدوثاً من الجانب الصوتي؛ لأنه إذا اختلفت معاني معظم الكلمات اتخذت أسساً خاصة في بنية الكلمات، وكذلك كان لها قواعد خاصة مختلفة عمّا عداها في تركيب الجمل، ولا تسمى حينئذ لهجة، بل لغة مستقلة، وإن ظلت تتصل ببعضها بظواهر لغوية تجعلها تنتمي إلى فصيلة لغوية واحدة (Abu Skeen, 1985).

والازدواجية هي ظاهرة طبيعية موجودة في اللغات الإنسانية، ومنها العربية. وهي تعني وجود مستويين من اللغة؛ مستوى خاص بالكتابة، وهو الأسلوب الأدبي أو اللغة الفصحى، ومستوى آخر يستعمل في الحديث اليومي، وهو ما يسمى بالعامية، أو اللهجات المحلية الخاصة بكل بلد عربي. وتختلف كلٌّ منهما، أي العامية والفصحى عن الأخرى اختلافاً بيّناً في كثير من مظاهر أصواتها، ومفرداتها، ودلالة ألفاظها، وأساليبها، وقواعدها، وتصريف مشتقاتها، وهي ظاهرة طبيعية في كل اللغات.

ولعل أخطر من ذلك تأثيراً استخدام أساتذة الجامعات في فرع الآداب للعاميّة واللهجات المحليّة، مع أننا لا ننكر وجود عدد من الأساتذة الذين يحترمون اللغة الفصحى، ويلتزمون بأدائها في محاضراتهم، لكننا نجد في المقابل كثيراً من الأساتذة يدرّسون اللغة العربية بالعامية مستخدمين اللهجات الدارجة في مخاطبة الطلبة. فإذا كانت هذه هي الحال في كلّيات الآداب، فإنّ الحال أسوأ في سائر الكليات التي تتخصص في الفنون والعلوم المختلفة. يقول عبد الصبور شاهين: إنّ جماهير الأساتذة في علوم الهندسة والطب والحقوق والعلوم والزراعة والتربية والفنون التشكيليّة... هؤلاء جميعاً لا يعرفون شيئاً من قواعد العربية الفصحى، وممارسة الحديث بها. فأمّا الأعلام والخطابات الجماهيرية، فقد أخلصت ولاءها للعامية، وخاصمت الفصحى. هذا تصوير للوضع الذي تواجهه الفصحى في أوطانها العربية، فهي لا تجد لخطواتها مكاناً يسعها (Shaheen, 1990).

أصبحت الازدواجية بين العامية والفصحي شيئاً طبيعيّاً، انتقلت إلى الفصول في المدراس، وقاعات المحاضرات في الجامعات. أن ينتشر هذا الأمر لدى العامة، فهذا شيء قد يكون مقبولاً إلى حدّ ما، ولكن أن ينتشر في قاعات الدرس، وخاصة في مادة اللغة العربية، اعتقد لا توجد مبررات لهذا. لأن اللغة المتفق عليها في قاعة الدرس هي اللغة الفصحى، التي يمكن أن يستوعبها الجميع، وتساعدهم في فهم المحاضرة. ولكن عندما تفرض اللهجات والعاميات نفسها، تكون المسألة غير مقبولة. وهذا بالتالي يضعف استيعاب الطالب للدرس. فكثير من اللهجات، والعاميات غير مفهومة للآخر. ومن أجل ذلك، فعلى مدرس المادة -بقدر المستطاع- أن يبتعد عن هذه المغامرات، ويحاول أن يستخدم لغة عربية بسيطة مفهومة للجميع.

ونحترز -هنا- من استخدام لغة جافة لا تواكب العصر، واقصد من ذلك تلك الكلمات الصعبة في النطق، وفي المعنى. فهناك اختيارات كثيرة، ومعاجم اللغة العربيّة تزخر بذلك، أي بالكلمات والألفاظ الرقيقة اللطيفة المؤثرة. ونذكر سيدنا عمر بن الخطاب في تفضيله للشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى المزني عن: ابن سلام: أخبرني عيسى بن يزيد بإسناد له عن ابن عباس، قال: قال لي عمر: أنشدني لأشعر شعرائكم، قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: وكان ذلك! قال: كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع وحشيّه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه (Al-Jumhi, 1974). إذاً اللغة العربية المختارة يجب أن تكون سهلة ممتنعة. وكانت لغة الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا. لأننا في الجانب الآخر لا نريد أن نزرع الخوف والوجل الرعب في قلوب أبنائنا، ونجعلهم يصدّون عن اللغة العربية.

الخاتمة

لابدّ من الاهتمام بتأهيل مدرسي اللغة العربية تأهيلاً علميّاً موجهاً، يأخذ بأيديهم إلى الهدف الأساسي من تعليم اللغة العربية، وهو تخريج جيل واعي، ومتمكن من لغته التي تمثل هُويته، وذاته، ويكون ذلك بتوجيه ومراقبة وسائل الإعلام المختلفة من قبل الدولة في الأداء المتميّز، والحفاظ عليه، والعمل على مراقبتها، وتعيين أولى الكفاية الذين يجيدون التحدث بلغة عربية رصينة.بالإضافة إلى ذلك أن يلتزم أصحاب القنوات الفضائية احترام الذوق العربي في لغته الفصحى، وبذلك نضمن تربية الأبناء، والأجيال القادمة على احترام اللغة الفصحى، وتحفيزهم على ذلك. ويكون الأمل في ذلك أن تهتم المؤتمرات القادمة بوضع الحلول الناجعة لحل المشكلات التي تواجه اللغة الفصحى.

References

Abdel Tawab, Ramadan (1967). *Lahn al-'Ammah wa'l-Tawr al-Luhgawiy*. Cairo: Zahraa al-Sharq Library.

Abu Skeen, Abdul Hamid (1985). *Ma'alim al-Lahjat al-'Arabiyyah*. Cairo.

Al-Douri, Abdel Aziz (1987). *Al-Fikr al-Tarbawi al-'Arabi al-Islami: al-Usul wa'l-Mabda'*. Tunisia: Arab Organization for Education, Culture and Science.

Al-Ghassani, Khaled Bin Salem (2012). *Al-Lughah al-'Arabiyyah Ila Ayn*. Research presented at the First Annual International Conference on the Arabic Language.

Al-Ghazani, Fathia Muhammad Bashir (1991). *Ma'ayir al-Bahth al-'Ilmi fi al-Tarbiyah al-Islamiyyah: Dirasah Wasfiyyah Taqwimiyyah li-Ba'd Rasa'il al-Tarbiyah al-Islamiyyah bi'l-Jami'at al-Misriyyah wa'l-Su'udiyyah*. Saudi Arabia, Madinah.

Al-Jumhi, Ibn Salam (1974). *Tabaqat Fuhul al-Shu'ara'*. Cairo: Civil Edition.

Al-Kilani, Majid Arsan (1988). *Ahdaf al-Tarbiyah al-Islamiyyah*. Saudi Arabia: Hadi Library.

Al-Naqib, Abd al-Rahman (1992). *Bahth Ulqiya fi Mu'tamar al-Tarbiyah wa'l-Nizam al-'Alami al-Jadid.* Cairo: Egyptian Society for Comparative Education and Educational Administration, Ain Shams University.

Al-Naqib, Abd al-Rahman (1997). *Al-Tarbiyah al-Islamiyyah al-Mu'asirah fi Muwajahah al-Nizam al-'Alami al-Jadid.* Cairo: Dar al-Fikr al-Arabi.

Al-Yaziji, Ibrahim (1984). *Lughah al-Jara'id.* Beirut: Dar Maroun Abboud.

Anis, Ibrahim (1965). *Fi al-Lahajat al-'Arabiyyah.* Cairo: The Anglo-Egyptian Library.

Armstrong, Herbert W. (1975). *The Modern Romans the Decline of Western.* USA: Civilization Ambassador College Pasadena.

Awad, Ahmed Abdo (2000). *Fi Fadl al-Lughah al-'Arabiyyah Ta'alluman wa-Tahadduthan wa-Iltizaman.* Cairo: The Book Center for Publishing.

Brockelman, Carl (1995). *History of Arabic Literature.* Egypt: Dar al-Maarif.

El-Bahnasawy, Hossam (2004). *Al-'Arabiyyah al-Fusha wa-Lahajatu-ha.* Cairo: Religious Culture Library.

Ghannouchi, Rashid (1984). *Maqalat Harakat al-Ittijah al-Islami bi-Tunis.* Tunisia: Dar Karawan for Printing, Publishing and Distribution.

Goodlad, John J. (1975). *The Dynamics of Educational Change.* USA: McGraw Hill Company.

Istaitia, Samir Sharif (1995). *Al-Mushkilat al-Lughawiyyah fi al-Waza'if wa'l-Mustalah wa'l-Izdiwajiyyah.* Jordan.

Jeffrey, Schrank (2018). *The Language of Advertising Claims.* Retreived from: http://www.demiss.edu/Egib/comp/ad.claeim.html

Mujahid, Abdul Karim (2005).*'Ilm al-Lisan al-'Arabi.* Oman: Dar Osama.

Saeed, Nafusa Zakaria (1997). *Tarikh al-Da'wah ila al-'Amiyah wa-Atharu-ha fi Misr.* Cairo: Dar Nashr al-Thaqafah.

Shaheen, Abdel-Sabour (1990). *Al-Tahaddiyat allati Tuwajihu al-Lughah al-'Arabiyyah.* Retreived from: http://www.isesco.org

Sharaf, Abdel Aziz (1980). *Al-'Arabiyyah Lughah al-I'lam.* Cairo: Dar al-Maaref.

Sharif, Sami (2004). *Al-Fada'iyyat al-'Arabiyyah: Ru'yah Naqdiyyah.* Cairo: The Arab Renaissance House.

Shawky, Ahmed (1975). *Al-Shawqiyyat.* Cairo.